الإحساس الحادّ بالألم

فى شعر الشابى

١

يختلف الشعراء فى إحساسهم بالكون أو بأنفسهم أو بما حولهم اختلافا مبعثه العمق والحـــدّة فى الإدراك والنفوذ إلى بواطنهم أو بواطن ما يصورونه . فهم ليسوا جميعاً سواء فى الإحساس ؛ بل منهم من هو سطحى الإحساس ، لايكاد يلمس ما يصفه إلا لمسا خفيفا ، وهو لذلك لا يؤثر فيك إلا تأثيرا من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فشعره فاتر لا حرارة فيه . ومن الممكن أن نودع فى هذا القسم مجموعة النظامين الذين لاينفعلون أى انفعال قِبَلَ الأشياء ، وإنما هم يسجلونها فى شعرهم ، كأن شعرهم صحف حسابية لأعداد وأرقام .

وفى الشعراء من يتعمقه ؛ ما يدركه ويحسه من ذات نفسه ، أو ما يبصره ويشاهده فى الكون من حوله ، تعمقا يصل إلى باطنه وخفايا داخله ، فنقرأ شعره ونحس كأننا فى حلم سحرى ، ونشعر بشىء من التسرية عن أنفسنا والراحة والمتعة الحقيقية ، لأن الشاعر يُنَفِّسُ عما فى داخلنا بما يجرى على لسانه من أبياته ، أو قل من مشاعره وإحساساته . فنحن عنده نستقبل أنفسنا وعالمنا بكل ما فيه من اضطراب وقلق وكمال ونقص ؛ فالعالم ليس كمالا خالصا ولا نقصا خالصا ، بل هو مزيج منهما ، مزيج ينتظر الشاعر الذى يحسه إحساسا حادًّا ويعرضه .

وبين هذين الفريقين من أصحاب الإحساس السطحى والإحساس الحاد

يقع كثير من الشعراء فى مدارج وسطى . وليس من شك فى أنه بمقدار ما يكون فى الشاعر من مادة الإحساس تكون موهبته فى الشعر ، كما يكون تأثيره فى سامعيه وقرائه . وهل ضَعُفَ الشعر العربى فى أواخر عصوره الوسطى إلا لضعف هذه المادة عند شعرائه فأصبحوا كالببغاوات ، يصيحون بكلام مكرر معاد قلما فهموه أوأحسوه ، وقدأخذوا ينقلونه من هنا إلى هناك دون أى تعديل أو تحريف يُدخل فى شعرهم شيئاً من روح أو حياة . وبذلك أصبح الشعر أشبه ما يكون بضرب من التطبيق على الشعر الموروث ، فالشاعر يؤلف القصيدة على نموذج قصيدة سابقة ، ولا يضيف إلا ألواناً باهتة من البلاغة المحفوظة ، ولا يفكر أى تفكير فى حق نفسه عليه ، وأن الشعر ينبغى أن يعبر عن هذه النفس من وجه أو وجوه . ومن هنا كان شعرهم شيئاً غثا ، وكان يشبه أكبر الشبه بركة راكدة طفحت بالأعشاب الضارة .

وبَوْنٌ بعيد بين هؤلاء المتشاعرين وبين شاعر كابن الرومى ، نحس بأعصابه وهى تهتز وترتجف فى شعره . ومن ثم لا نبالغ إذا قلنا إنه لم يحس نفسه فقط ، بل أحس كل ما حوله من دقائق الحياة . وكان المتنبى يحس العرب فى أعماقه ، واندفع فى التعبير عن هذا الاحساس إلى أقصى حد ، حتى أصبح فيه مضرب الأمثال . وكان أبو نواس يحب الحياة ، ومثل ذلك تمثيلا رائعاً فى وصفه وحبه للخمر التى اتخذها وسيلته لتصوير بهجته وفرحته بدنياه .

وكان أبو العلاء ، حبيس بصره ، يجول دائماً فى أحشاء الظلام جولات ردَّته إلى التفكير فى مصير الانسان المادى والروحى ومايجرى فى الحياة من خير وشر . فإحساسه الدقيق بألمه لفقد بصره حوله إلى العالم من حوله ومافيه من تباين ، وتناقض ، وشقاء ، وسعادة ، واستطاع ببصيرته المتوقدة أن يزيل الغشاوة عن عينيه ، بل أن يمزقها تمزيقاً ، وأن ينظر ، فيبلغ نظره

أعماق المجتمع وأعماق الكون ، وينفذ إلى كثير من أسرارهما ، مما لم يستطعه أفذاذ المبصرين من حوله .

وهذا معناه أن كلا من هؤلاء الشعراء المبدعين الذين سميناهم كان يحيى حياة فنية صحيحة ، حياة ملؤها الإحساس الحاد بأنفسهم واختلاجاتهم الباطنة وبما ينبض به المجتمع والكون من حولهم . ولذا كنت تحس عندهم بمكنون أنفسهم ومكنون عصورهم ؛ إذ أحالوا النماين شعراً يفيض باللذة والفرح والسرور تارة ، ويفيض تارة أخرى بالحـــزن والهم والألم الدافق العميق .

٢

وأبو القاسم الشابيّ الشاعر التونسى الذى هصر غصنه القدر سنة ١٩٣٤ ولما يبلغ الخامسة والعشرين بعد كفاح شاق مرير بينه وبين مرض القلب(١) إذ أصيب فى عنفوان شبابه بتضخم فيه . هذا الشاعر يعد فلته من فلتات عصرنا الحديث فى حدة الإحساس ، وعمقه ، ودقته .

لم يتعلم لغة أجنبية ، ولا خرج عن محيط بيئته ، ولكنه قرأ ، واستوعب كل ما وقع عليه من شعر قديم وحديث وأدب غربى منقول . وانطبعت فى خياله عن طريق قراءاته ، وخاصة للشعراء المجددين صورة فذة للشعر ، فيها تحرر من القديم ، سواء أكان فى شكل القصيدة أم فى موضوعها ؛ فقد تخلص من رق المديح وما يتصل به واتجه إلى نفسه وإلى عصره وأمته . وشعر شعوراً واضحاً بالحق والجمال والكمال ، وظل هذا الشعور يجرى فى شعره تياراً مندفعاً لا ينقطع ولا ينفصل عن أى قصيدة أو أى مقطوعة ينظمها . ولكن هذا الشعور ليس هو الذى استنفد شعره إنما استنفده شعور

---

(١) انظر « الشابى : حياته وشعره » لأبى القاسم محمد كرو (طبع بيروت) ص ٢٨ .

آخر ، هو شعوره بألمه وعلته التى أصابته فى شرخ شبابه .

ومَنْ يُصابون بالمرض مثل أبى القاسم الشابىّ يختلفون ، فمنهم من يتألم ولكنه يحوِّل ألمه إلى فلسفة فى الحياة وإلى تفكير واسع فيما يلاحقها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء . فالألم عند هذا الفريق لا يتحول إلى نفسه والحديث عن أوجاعه ، وإنما يتحول إلى الحياة البشرية كلها وما ترتطم به من صخور الشر والظلم الصارخ .

ومن المَرْضَى من يعلو على ألمه ، بل من يحاول أن يقهر ألمه وينتصر عليه إلى النهاية ، فتراه ضاحكا باسماً ، كأنما تحول الألم عنده إلى لذة ، فهو لا يتشاءم بل هو كثير التفاؤل ، وهو لا يضيق بما حوله ، بل هو كثير التسامح . كل ماحوله فى الطبيعة جميل ، وجماله يفقده الوعى بنفسه ومايعتصر قواه من مرضه ، وفرحته بالكون تعلو على كل آلامه ، إذ طُردت من صدره كل الوساوس والأوهام التى تجيش بصدور أمثاله .

غير أن هذين النوعين نادران ، أما الكثير فيكون على مثال أبى القاسم الشابى لا يحوله الألم إلى فيلسوف ومفكر كبير ، وأيضاً لا تحوله العلة إلى ضاحك فى الحياة أومبتسم ، وإنما تحوله إلى بوق كبير للعويل والبكاء وندب نفسه وحياته ندباً حارًّا .

وتصادف أن كان إحساس أبى القاسم الشابى حادًّا ، وجعلته حدته محبًّا للحياة صَبًّا بها ، وشعر برءوس أفاع تمتد إليه فى طريقه ، فتمنعه من السير بل ترده إلى داره إن لم يكن إلى فراش علته ، فرجع محزوناً يُجَرِّرُ أذياله والكآبة قد ملأت نفسه ، وملأها أيضاً الإحساس الدقيق بالكارثة وماينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبثه لواعجه سوى نای شعره ، فأخذ يشدو عليه أغانى مشجية نَظَمها والدموع تنهمر من عينيه ؛ وهى لذلك تعد أشجى أغانينا

فى العصر الحديث ، لأن صاحبها بَلَّلَها بدموعه وهو يكتبها ، ولأنها تصور ألماً حقيقيًا ؟ بل لأن صاحب هذا الألم كان حاد الحس ، فسقط لا على الألفاظ التى تمثل ألمه ، وإنما على الإبر التى تلسع ، وحَمَى الإبر فى نيران قلبه فأصبحت تكوى وتلذع . واسمعه يغنى « أغنية الأحزان » .

حطمتْ كفُّ الأسى قيثارتى
فى يد الأحلام
فقضتْ صمتاً أناشيد الغرام
بين أزهار الخريف الذاويه
وتلاشت فى سكون الإكتئاب
كصدى الغِرِّيد
كُفَّ عن تلك الأغانى الباسمه
أيها العصفور
فحياتى ألفتْ لحن الأسى
من زمانٍ قد تقضَّى وعسى
أن يثير الشَّدْوَ فى صمت الفؤاد
أنــة الأوتار
لا تغنينى أغاريد الصباح
بلبل الأفراح
ففؤادى وهْو مغمور الجراح
بتباريح الحياة الباكيه
ليس تستهويه ألحان السرور
وأغانى النور

إن من أصغى إلى صوت المنون
وصدى الأجداث

ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحره
وابتسامات الحياة السافره
عن جلال الله

غنِّني يا طير أنات الجحيم
واسقني الآلام

واترع الكأس بأوجاع الحياه
واسقني إني كرهت الإبتسام
غنِّني ندبَ الأماني الخائبه
والليالي السود

غنِّني صوت الظلام المكتئب
إنني أهواه

ولا شك أننا نشعر فى أثناء قراءتنا لهذه الأغنية بوخز الألم فى صدره ، فقد تحطمت قيثارته ، حطمتها كف الأسى فى يد الأحلام ، وذابت نغمات الغرام بدنياه فى غمرة هذا التحطيم . إن المرض يطعنه فى الصميم ، فى قلبه ، وهو يتطلع إلى الحياة كشمس تغرب تحت عينيه ، وإنه ليعجب فيم غناء العصفور ؟ إنه لا يبعث فى نفسه حنينا ولا بِشْرا ولا حُبًّا ، إنه لا يبعث إلا الذكرى التاعسة ، وإلا أنة الأوتار . وهو لا يريد بعد اليوم أن يرى الصباح ، ويسمع بلبل الأفراح ، فحياته أصبحت ظلاما مطلقا لا تعرف النور ولا تطيق السرور ، وكيف تعرفهما والمرض ينشر أجنحته السود فوقها . ولا تلبث رياح الخوف والذعر أن تهبَّ عليه من كل مكان ، إذ يرهف

سمعه : فلا يسمع سوى أصوات الموت المدوية وأصداء القبور المرعبة ، وإنه ليفزع سمعه قرعُ أجراس تقترب من بعيد ، بل من قريب ، فى أحشائه وسويداء فؤاده .

وهذا كله يرهف جسده وأعصابه ، فيبكى ويعلو بكاؤه ، ويتجه إلى الطير يطلب إليه أن يهجر غناءه الفرح القديم إلى أنات الجحيم ، ويسكب فى كئوسها الآلام وأوجاع الحياة ، حتى ينهل منها ما يشفى ظمأه ويطفىء غُلَّتَه ، ويطلب إليه فى أسى وحسرة أن يندب له أمانيه الخائبة ولياليه السود الموحشة ، مرتِّلا صوت الظلام الكئيب ، فقد أشرفت الحياة على المغيب ، فى لجة الظلام العميق .

ولم يستطع شىء أن يرد الشابى عن هذا الشعور بخيبة الرجاء ، فالطبيعة تعصف بقلبه ، وهو يراقب آماله بالحياة وأحلامه ، فيراها تتساقط على نحو ما تتساقط أوراق الخريف . ألا فليبك وليرسل الدمع مدرارا ، وما قصيدته أو أغنيته « مأتم القلب » إلا حبات من هذا الدمع الذى يتناثر دائماً من عينيه ، وفيها يقول :

فى الدياجى
كم أناجى
مسمع القبر بغصّا ت نحيبى وشجونى
ثم أصغى عَلَّنى أسـ مع ترديد أنينى
فأرى صوتى فريد
مات حِسِّى
مات قلبى
فاذرفى يا مقلة اللَّيـ ل الدرارى عبراتِ
فوق قلبى فهو قد ودَّع أوجاع الحيـاة
بعد أن ذاق اللهيب

وليس هذا الحب الذى يرثيه مع قلبه إلا حبه للحياة ، وما حبيبته التى يرثيها فى شدوه إلا دنياه وما يتألق فى بصره من جمالها الذى يسطع على الأشياء والأشخاص من حوله . وإنه ليريد أن يعانق هذا الجمال بكل جوارحه ، فترده يد سوداء تخرج له من الظلام ، تنهاه أن يقترب ، فيبكى ويئنّ ، ويشعر كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فرت من تحت بصره ، ولم يعد له إلا كهوف الموت يتعثر بين صخورها . ويا لبؤس الحياة حين يضغط المرض على قلب شاعر وصدره ، فتسودّ الدنيا فى عينه ، ولا يجد ما يفرّج عن كربته ، أو يكشف عن غمته ، حتى أمانيه فإنها تهوى متساقطة تساقط الشهب ، وماذا بقى للشابى من دنياه ؟ إنه لم يبق له إلا الظلام الموحش وإلا الرؤى المزعجة والأشباح المخيفة ، أشباح الموت القاسى الغاشم الذى لا يرحم :

أرأيتَ شحرور الفلا ... مترنّما بين الغصون
جمد النشيدُ بصدره ... لما رأى طَيْفَ المنون

فقضى وقد غاضتْ أغا ... ريدُ الحياة الطاهره
وهَوَى من الأغصان ما ... بين الزهور الباسره

أرأيت أم الطفل تبـ ... كى ذلك الطفلَ الوحيد
لما تناوله بعنـ ... ف ساعد الموت الشريد

أسمعت نوح العاشق الـ ... ولهان ما بين القبور
يبكى حبيبته فيا ... لمصارع الموت الجسور

فالدنيا من حوله ليس فيها إلا شبح الموت ، وبصره يشاهد هذه الأشباح جاثمة على صدر كل شىء : الشحارير والأطفال والمعشوقات ، فيستغيث ويستجير ، ويأخذه الفزع من كل جانب . ولم يكن هناك وقت يزدحم عليه فيه الفزع كالليل ، إذ كان ينهال عليه المرض فيه جَلْدا ووَخْزا وطَعْنا ،

وكأنه سياط من نار أو كأنه سيوف حامية ، فكان يخافه ويرهبه ويرتجف حين يدنو منه رجفة شديدة ، حتى ليطير عقله أحيانا ويطير صوابه، إذ يشعر كأنه سيخنقه خنقا . وأغنيته « أيها الليل » تصور محنته به ، وفيها يقول :

أيها الليلُ يا أبا البؤس والهَوْ ل ويا هيكلَ الزمان الرهيبِ
أنت يا ليل ذَرَّةٌ صعدتْ للـ ـكون من موطىء الجحيم الغضوب
يا ظلامَ الحياة يا لوعة الحز ن ويا معزف التعيس الغريب
فيك تنمو زنابقُ الحلم العذ ب وتَذْوَى لدى لهيب الخطوب
وبفَوْدَيك فى ضفائرك السو د تدبُّ الأيام أىَّ دبيب

فالليل عنده رمز البؤس والهول وعذاب الجحيم ، وأى عذاب ؟ إنه عذاب المريض الذى تغلق عليه دائرة حياته ولا تنفتح إلا للألم والوجع . وإنه ليحس فى أثناء ذلك بالعزلة فى هذا القفص الضيق الذى سُجِنَ وراء قضبانه إذ أصبح غريباً عن الحياة وسط دياجيره ، بل وسط لهيبه الذى تتناثر فيه زنابق أحلامه ، وإنه ليسير وقد أسر الأيامَ والآمال فى ضفائره السود ، التى تشبه أدق الشبه الأغلال والقيود . ويجمع الشابى أمره وينظر فى كل هذا الهول إلى أعماقه ، وسرعان ما يقول :

سدَّدتْ فى سكينة الكون للأء ماق نفسى لحظاً بعيدَ الرسوبِ
نظرة مَزَّقَتْ شغاف الليالى فرأتْ مهجة الظلام الهيوب
ورأتْ فى صميمها لوعة الحز ن وأصغَتْ إلى صراخ القلوب
إنما الناس فى الحياة طيورٌ قد رماها القضا بوادٍ رهيب
يعصف الهولُ فى جوانبه السو د ليقضى على صدى العندليب

فهو يسدد نظره إلى الليل فلا يرى فيه إلا أمواجا من الظلام قد رسبت فى أعماقها لوعات الحزن وآلامه وعويل القلوب وصراخها ، هذا الصراخ الذى يطن فى قلبه طنين ناقوس . وما يلبث أن يلقى سلاحه ، ويستسلم ، قائلا : إن

الناس فى الحياة طيور رماها قناص القضاء فى وادى الحزن والألم حيث يعصف الهول والرعب فى جوانبه الداجية ، وحيث الموت فاغرٌ فاه ، يلتهم كل من يلقاه .

وعلى هذه الشاكلة أغانى الشابى ، فكلها حزن وبكاء ، وكلها ثمرة هذا الألم الذى كان يعصر قلبه عصراً . وكأن هذا الألم هو مبعث وحيه ومنبع شاعريته ؛ فلولاه ، على ما يظهر ، ما تحركت فى داخل نفسه الباطنة عبقريته الشاعرة ، واقرأ فيما نُشر وجُمع من أغانيه وأشعاره فستراها كلها نبتت فى تربة الألم ، وتمايلت أغصانها فى ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه .

٣

ولم يقف إحساس الشابى الدقيق بالألم عند نفسه ، بل تعداها إلى أمته إذ وجدها ترزح تحت كابوس الاستعمار الفرنسى وتستشعر منه ألما مريرا ، وهو ألم ينبعث من قلبها وصميمها كما ينبعث ألمه من قلبه وصميمه ، فقد أذلها الفرنسيون ، وحوّلوا حياتها إلى جحيم لا يطاق .

وكان الشعب التونسى فى مجموعه كالنائم ، لم يستيقظ منه إلا الأقلون عددا ، ثاروا لأمتهم وثار معهم الشابى ثورة تغلغلت فى أعماقه ، إذ تصادف أن كان معلولا ، فأحس إحساساً دقيقاً بعلة أمته وبالمرض السياسى الذى يطحنها — طحن الرَّحى — تحت أنيابه . إنه الاستعمار البشع الغاشم الذى ألقى بكلاكله على صدر أمته ، وإنها لتذوق منه ومن ظلمه وبطشه الأمرَّين ، فترفع رأسها تريد أن تحيا حياة حرة كريمة ، فينهال عليها ضرباً وطعناً ، حتى تخرَّ مهيضة ، وهى تئن أنين الثكلى . ويهبُّ الشابى فى وجه المستعمر ، فيلطمه بمثل قوله :

ألا أيها الظالم المستبدُّ حبيب الفناء عدوّ الحياه
سخرتَ بأنّات شعب ضعيف وكفُّك مخضوبةٌ من دماه

وعشت تدنّس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى فى رُباه

رويدك لا يخدعنك الربيعُ وصحوُ الفضاء وضوء الصباح
ففى الأفق الرحب هول الظلام وقصفُ الرعود وعصف الرياح
ولا تهزأنّ بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يجنِ الجِراح
تأمّلْ هنالك أنى حصدتَ رءوس الورى وزهور الأمل
ورويّت بالدم قلب التراب وأشربته الدمعَ حتى ثمل
سيجرفك السيل سيلُ الدماء ويأكلك العاصف المشتعل

فهو يسجل على عدو شعبه ظلمه واستبداده وما يسفح من دمائه الزكية، وإنه ليدنس رباه الطاهرة بما يغرس فيها من شوك الأسى والألم. ويقول له: مهلا، لايخدعنك ماترى من الصحو وابتسام النور فى الربيع، فستعصف بك عما قليل ريح صرصر عاتية تجرفك هى وأمواج الدماء التى أسلتها دموعا حمراء فى جنبات الوطن. إن كل ذلك سيلتف بك ويبتلعك فى جوفه ابتلاعا.

وهذا الشعر السياسى أو الوطنى كان منتشراً فى كل بلاد الشرق الأوسط فى مصر والشام والعراق، ولكن شاعرا لم يبلغ فى هذه البلدان ما بلغه الشابى فى تونس. حقا نجد عند حافظ والرصافى وأضرابهما تعبيرا سياسيًّا أو وطنيًّا مستحدثا فى لغتنا. ولكننا لا نجد عندهما هذا الإحساس الحاد الذى يجعل الشاعر يحس أمة بأسرها، ويحس آلامها وأوجاعها تلقاء المستعمر الظالم، فينتفض، ويزأر فى وجه الغاصب زئير العاصفة، على نحو مايزأر الشابى إذ يقول:

ألا أيها الظلم المصعرُ خدَّهُ رويدك إن الدهر يبنى ويهدمُ
أغرَّك أن الشعب مُغْضٍ على قذًى
لك الويل من يوم به الشرُّ قشعَمُ
سيثأر للعزّ المحطَّم تاجُهُ رجالٌ إذا جاش الرَّدَى فهمُ هم

رجال يرون الذل عارا و سبّةً ولا يرهبون الموت والموتُ مقدم
ألا إن أحلام البلاد دفينةٌ تجمجمُ فى أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتى بعد لأىٍ نشورُها وينبثق اليوم الذى يتزنّم
هو الحق يبقى راكداً فإذا طغى
بأعماقه السخطُ العصوف يُدَمْدِمُ
وينحطُّ كالصخر الأصم إذا هوى على هام أصنام العتوّ فيحطم

وهو فى هذا الزئير الذى يدمدم فيه دمدمة الأسد لا يقف فى صف أمته فحسب ، بل هو ينطق بلسانها وروحها ، ويعبّر عن ضميرها ومكنون أحلامها وأنها لا بد يوماً أن تثأر لكرامتها وحريتها التى ذبحها المستعمر ذبحا وولغ فى دمها ، وما يزال الدم عالقاً بفمه . إنه يوم البعث والنشور ، يوم الحق الذى يهوى فيه نجم الباطل .

وإذا كان الشابى هان يوماً وذَلَّ أمام مرضه الذى يعيث فى قلبه ، فإنه لم يَهُنْ ولم يذل أبداً أمام المستعمر ، بل ظل قويا متحفزا ، يريد أن ينشب أظافره فيه ، بل أظافر شعبه . ومن أروع ما يصور ذلك أنشودته « إرادة الحياة » وفيها يقول :

إذا الشعبُ يوما أراد الحياةَ فلابد أن يستجيب القَدرْ
ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسرْ
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخّرَ فى جوها واندثر
كذلك قالتْ لىَ الكائناتُ وَحَدَّثنى روحُها المستتر
ودمدمت الريحُ بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجرْ:
إذا ما طمحتُ إلى غاية لبستُ المنى وخلعتُ الحذر
ولم أتخوَّفْ وعور الشعابِ ولا كَبَّةَ اللهب المستعر
ومن لا يحب صعود الجبال يَعشْ أبد الدهر بين الحُفَرْ

وأطرقت أصغى لعزف الرياح ... وقصف الرعود ووقع المطر
وقالت لىَ الأرض لما تساءلـ ... ـت يا أمّ ! هل تكرهين البشر ؟ :
أبارك فى الناس أهل الطموح ... ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يماشى الزمان ... ويقنع بالعيش عيش الحجرْ
هو الكون حىٌّ يحب الحياة ... ويحتقر الميتَ المندثر
فلا الأفق يحضن مَيْتَ الطيور ... ولا النحل يلثم مَيْتَ الزَّهرْ
فويلٌ لمن لم تَشُقْهُ الحيا ... ة من لعنة العدم المنتصر

وهذا شعر كله قوة ، وكأن الشابى يريد به أن يبعث أمته ، فلَمَّ نفسه ونفخ فى الصور ، لعلها تحيا من جديد ويحيا معها ميت الأمل . إنه يريد أن ينقذ الضحية من يد جزارها ، وهو يدفعها ، لعلها تثور ثورة فيها جرأة وفيها مخاطرة ، حتى تفتدى نفسها ، بل حتى تثأر لكرامتها وعزتها الطريحة . ويستمر الشابى فى بقية الأنشودة مقبلا على دنياه ، فهو طموح ، قد خلع عنه رداء التشاؤم ، وكأنما أحس الحياة ، وتألقت فيه إرادتها ، وأراد أن يعكسها على أمته لتهبَّ من رقادها ، وتنفض غبار الذل والاستخذاء عن بصرها وبصيرتها . ويمر به الليل فلا يؤذيه ، بل ينتشى فيه ، ويسكر من ضياء نجومه ويناغيه ، ويشعر بظمئه للنَّهَل من نهر الحياة ، ويقبل عليه يريد أن يعب منه ، كما يقبل على النور يريد أن تكتحل به عيناه .

٤

وهذه الأوقات التى كان يتطهَّر فيها الشابى من ألمه ، والتى يمكن أن نسميها أوقات نقاهته ، لم تكن كبيرة ، فقد كان يغمره دائما ضباب العلة وظلامها . ولكن من حين إلى حين كان يبرق فى سمائه وميض الأمل بالحياة ، فيتحول إلى عدو شعبه ، وإلى شعبه نفسه ينفخ فيه ، ويصيح بأعلى صوته فى روحه وضميره غاضباً ثائرا .

ولم يكن يثور لشعبه من دونه، بل كان يثور أيضاً لنفسه ثورات شخصية. فقد أصيب بقوم يمقتونه، ولا يقدرون له أدبه وشعره، فكان هذا يحزّ فى صدره؛ وكان إذا عادله شىء من نقاهته حوّل بصره إلى خصومه فأنشدهم أناشيد مدوية تأخذ بأسماعهم وأبصارهم من مثل « نشيد الجبار » وهو يستهله بقوله:

سأعيش رغْم الداء والأعداءِ ... كالنَّسر فوق القمة الشمَّاءِ
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً ... بالسّحْب والأمطار والأنْواء
لا ألمحُ الظلَّ الكئيب ولا أرى ... ما فى قرار الهوة السوداء
وأسير فى دنيا المشاعر حالما ... غَرِداً وتلك طبيعة الشعراء
وأقول للقدر الذى لا يثنى ... عن حَرْب آمالى بكل بلاء
لا يطفىء اللهبَ المؤجَّج فى دمى ... موجُ الأسى وعواصف الأرزاء
فاهدم فؤادى ما استطعتَ فإنه ... سيكون مثل الصخرة الصمَّاء
لا يعرف الشكوى الذليلة والبُكا ... وضراعة الأطفال والضعفاء
ويعيش كالجبار يرنو دائماً ... للفجر، للفجر الجميل النائى

ويمضى فى هذا الصوت القوى معلناً أنه لن يهتم بالقدر وما يضعه فى طريقه من مخاوف الليل وزوابع الشوك وصواعق البؤس، فسيسير بروح حالم متوهج بالنور، ولن يُلقى بالا ولا اهتماماً لما ينشره حوله من ظلام حالك. وحتى إن هو وافاه القدر المحتوم فسيكون سعيداً لتحوله عن عالم البغضاء والآثام وهذه الوجوه المغبرة من أعدائه الذين يودون لو تداعى بناؤه، بل إنهم ليشعلون النار يريدون أن يشووا عليها أشلاءه، ويتوجّه إليهم بخطابه:

إن المعاول لا تهدّ مناكبى ... والنار لا تأتى على أعضائى
فارموا إلى النار الحشائش والعبوا ... يا معشر الأطفال تحت سمائى

وكان يألم — على ما يظهر — أشد الألم لما ينهش هؤلاء الخصوم من لحمه وعرضه ، وكأنه لم يعرف أن هذه عادة النفوس الصغيرة ، فأصحابها كالنباتات الطفيلية ترى الشجرة الباسقة وقد علت رأسها وتمادت فى السماء ، فتلتف بها تريد أن تصعد إليها ؛ وتود لو تجهز عليها ، حتى تستريح منها ومن علوها ! وما بأيديها ولا بأيدى أعداء الشابى وأمثاله أن يمنعوا صعود الأشجار إلى عنان السماء ، وما كان لهم أن يطفئوا نور عبقرية من العبقريات أراد الله لها برغم أنوفهم أن تضيء وتتلألأ ويخطف سناها الأبصار ، وينتشر من حولهم فى البقاع والأمصار .

وهكذا لم يكن الشابى يلقى خصومه بشيء من التسامح ، فقد كان حادَّ الحس والشعور ، فتحول يقذفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمى رءوسهم ، ووسع الدائرة التى يقذف فيها بحجارته ، فلم يقف بها عند طائفة معينة من شعبه ؛ بل عمَّ بها الشعب فى ساعة من ساعات غضبه ، فإذا هو يصب عليه طوفانا من الأحجار ، حتى ليقول :

أيها الشعب ليتنى كنت حطَّا ... با فأهوى على الجذوع بفأسى
ليت لى قوة العواصف يا شعـ ... ـبى فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير لكن ... أنت حىٌّ يقضى الحياة برمسِ
أنت روح غبيَّةٌ تكره النّو ... ر وتقضى الدهور فى ليل ملسِ
فى صباح الحياة ضمَّخت أكوا ... بى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك فأهرقـ ... ـت رحيقى ودُست ياشعب كأسى
ثم نضَّدتُ من أزاهير قلبى ... باقةً لم يمسَّها أىّ إنس
ثم قدمتها إليك فمزَّقـ ... ـت ورودى ودُستها أىَّ دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوبا ... وبشوك الصخور توَّجت رأسى
ها أنا ذاهبٌ إلى الغاب يا شعـ ... ـبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى

ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه إلا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترا فصبَّ جام سخطه عليه، حين رآه لا يعرف مواهبه، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التى ينبغى أن تُستقبل بها. وربما كانت ثورة خاصة وعمَّمها فهو يثور على خصومه من ذوى النفوس الدنيئة، ويتسع بثورته إلى الشعب جميعه. وعلى كل حال هى ثورة عابرة فى أشعاره، ومثلها مثل الدوامة تظهر على نهر النيل، ثم تمَّحى فى مياهه بعد قليل. وكانت مياه الشابى كدرة، كدرها المرض والامه.

ولم ينفعه أن يعتزل شعبه إلى الغاب أو إلى الطبيعة، فهناك أطلَّ عليه عذابه، وأطلَّ عليه الظلام ووحشته وهمومه، وعاوده بؤسه وشقاؤه، فتناول الناى. وعزف عليه لاعجا من « الأشواق التائهة » :

يا صميمَ الحياة إنى وحيدٌ ... مدلجٌ تائهٌ فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة قد وَجمَ النّا ... ىُ وغام الفَضا فأين بروقك ؟
كنتُ فى فجرك المغلَّف بالسِّحْـ ... ـرِ فضاء من النشيد الهادى
وانقضى الفجر فانحدرتُ من الأفْـ ... ـق ترابا إلى صميم الوادى

وهو فى هذه الأنشودة يرثى نفسه ويبكى أمسه، إنه أصبح على شفا جُرُف من الهاوية، وهو يراقب نبضات قلبه، وينظر فى السماء، فلا يلمع له أى أمل بالبقاء. بل إن رُجُومها جميعا توحى له بأن الساعة قد دنت، وأنه موشك أن ينتقل إلى الحياة الأبدية، وقد أصبح لا يخاف ولا يفزع، بل إنه يتحول إلى مصيره فى هدوء، وهو يتغنى أنشودته « فى ظل وادى الموت » وفيها يقول :

وتغشَّى الضبابُ نفسى فصاحت ... فى ملالٍ مرٍّ إلى أين أمشى ؟
قلت سيرى مع الحياة فقالت : ... ما جَنَيْنَا تَرَى من السير أمس؟
فتهافتُّ كالهشيم على الأرْ ... ضِ وناديت أين ياقلبُ رَفْشِى

هاته علّنى أخطّ ضريحى فى سكون الدجى وأدفن نفسى

إنه يمهد لرقاده الأخير . فقد أصبح كورقة ذابلة تتهيأ للسقوط ، ولن يمسّها همسُ ريح حتى تهوى فى خضم اللانهاية ، ولم يعد ذلك يقلقه ، فقد أفقده المرض شهوته المتفتحة للحياة وإقباله المتحمس عليها ، بل لقد ملّها وزهد فيها إذ لم تعد تحمل إليه من جديد سوى رصيد دائم متصل من الألم لا ينقطع تياره فى قلبه وسويدائه . لقد أصبح يكره الحياة ، وأنه ليريد منها الخلاص ، حتى ينجو بنفسه من شرورها وأوجاعها المبرحة ، وهو لذلك يستقبل الموت راضيا مطمئنا ، بل إنه ليمسك بنايه ، يتغنى عليه أنشودته «الصباح الجديد» :

اسكتى يا جراح واسكنى يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطلّ الصباح من وراء القرون

وكأنه يحس بالموت سيعتقه من أحزانه ، وينجيه من أوصابه ، فتندمل جراحه ، وتسكن شجونه ، وتجفّ دموعه ، وتمّحى الظلمات التى كان يجوبها فى ليله ونهاره ، فتلك تباشير الصباح توشك أن تطردها من حوله إلى غير رجعة ، وهو يتغنى فرحا سعيدا :

الوداع الوداع يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقى فى الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع

وهكذا ذوت تلك الزهرة ، وهى لاتزال فى برعومها أو فى كمّها ، ولما يكتمل تفتحها ، ولا تمّ شذاها وعطرها ، إذ ظل المرض يمتص رحيقها ، حتى تفتتت قبل الأوان .